مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (5)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (5) 2017

الحركة الفدّاويّة في بلاد الشام
نشأتها _ قلاعها_ عمارتها (488_ 672هـ/1095_ 1273م)

د. رندة عباس[1]
محمد شاهين[**]

(تاريخ الإيداع 5 / 9 / 2017. قبل للنشر في 17 / 10 / 2017)

□ ملخّص □

عانت بلاد الشام خلال العصر العباسي من الزحف السلجوقي عليها، وتحولت في النصف الثاني من القرن الخامس للهجري/الحادي عشر الميلادي، إلى رقعة شطرنج تحكمها دويلات متنازعة. رافق ذلك موت الخليفة الفاطمي المستنصر بالله 487هـ/1094م في القاهرة، وانشقاق الإسماعيلية إلى مستعلية، ونزارية حيث عملت النزارية، التي كانت قلعة ألموت شمال فارس مركزاً لها منذ عام 488هـ/1095م، على مدِّ نفوذها إلى بلاد الشام مستغلةً أوضاعها المضطربة بأسم الحركة الفداوية، وبعد سلسلة إخفاقات تمكنَّت سنة 535هـ/1141م من تأسيس دويلة لها في بلاد الشام. عرفت بقلاع الفدّاوّية، التي تمكنت من البقاء مئة وثلاثين عاماً معتمدة على خلق توازن بين الأطراف المتصارعة من الزنكيين والأيوبيين مع الفرنجة، ومع قيام المماليك بتوحيد بلاد الشام مع مصر، أدى ذلك للقضاء على الدعائم الأساسية للحركة الفدّاويّة سنة 672هـ/1273م إلا أنَّ قِلاعها ما تزال شاهداً على تميّز تلك الحركة حضارياً ومعمارياً عن باقي الحركات، والدويلات التي حكمت بلاد الشام.

الكلمات المفتاحية: الإسماعيلية _ الفدّاويّة _ بلاد الشام _ العباسيين _ الفرنجة _ المماليك.

[1] مدرسة – قسم التاريخ – اختصاص تاريخ العرب والإسلام – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – سورية – اللاذقية.
** طالب دراسات عليا(ماجستير) – اختصاص تاريخ العرب والإسلام – قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – سورية – اللاذقية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (5)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (5) 2017

The Fedayeen in The Levant (Emergence , Castles and Architecture) (AH/1095-1273AD672 – 488)

Dr. Randa Abbas[1]
Mohammad SHaheen[**]

(Received 5 / 9 / 2017. Accepted 17 / 10 / 2017)

□ ABSTRACT □

During the Abbasid era , the second half of 5th century AH – 11th century A D , the levant ,which turned to a chessboard governed by conflicting states, suffered from crawling of Seljuk empire. This situations accompanied by the death of Fatimid calipha (Al-mustansir) (487 AH-1094 AD). And as a sequence, the Ismaili cult splitted to Mustaali and Nizari. Nizariyya , which centered in Alamut castle, north of Persia, since 448 AH/ 1095 AD, worked to establish a state in the levant.

At 535 AH/1141 AD , they bring to life a series of castlesm, named (qelaa Alfdaoyah) , which continued alive over 130 years , depending on creating a balance between conflicting parties of Zangid Ayyubids with the Franks .When the unification of the levant and Egypt was done, under control of Mamluk , foundations of Alfdaoyah were undermined as a result. But despite its disappearance from political theatre , their castles and remains are still a witness to their excellence.

Keywords: Ismaili , The levant , Alfedayeen , Abbasid , Franks , Mamluk.

[1] **Assistant Professor, department of history (Arab and Islam history),faculity of humanities and literature, Tishreen university , Syria,Lattakia.**
[**] **postgraduate student, department of history (Arab and Islam history) ,faculity of humanities and literature, Tishreen university , Syria,Lattakia.**

مقدّمة:

ترتكز العقيدةُ الاسماعيليّة حولَ فكرةٍ أساسيَّة هي الإمامة، فلكلِّ رسولٍ إمام. ومهمّة الرّسول أنْ يجهَر بالدّعوة، ويعلِّم جميعَ النّاس العباداتِ الظّاهريّة. أمّا الإمام فيختصُّ بتعليم المعاني الحقيقيّة، والأصولِ الفلسفيّة لتلك العبادات. وعلوم الإمام غيرُ مُتاحةٍ لجميع النّاس، وإنّما لأصحابِ الكفاءة والقدرة على تلقّي و استيعابِ هذه العلوم. وبالتّالي فإنَّ علومَه ليستْ ظاهريّة، وإنما باطنيّة. وهذا يقتضي أن يكون الإمام مُستتراً لا يعرفهُ إلا أتباعهُ. وبوفاتهِ تنتقل الإمامة إلى ابنهِ الأكبر. والأئمّة عند الاسماعيليّة، بعد الإمام جعفر الصّادق هم : اسماعيل بن جعفر، محمّد بن اسماعيل، أحمد الوافي، محمّد التّقي، رضيُّ الدّين عبد الله، ثمّ عبدالله المهدي؛ الذي أسّس الخلافة الفاطميّةَ في المغرب العربيِّ سنة 297هـ/909م، ثمَّ شملَت مصر في عهد الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله سنة 358هـ/969م. وبعد وفاة الخليفة الفاطميِّ المُستنصر سنة487هـ/1094م اختلفت الاسماعيليّة فيما بينهم على تسميةِ الإمام الجديد، فمنهم من انحاز إلى الابن الأكبر نزار بحسب مبدأ الإمامة، وآخرون تشيّعوا للابن الأصغر المستعلي بسبب صغر سنة وبالتالي السَّيطرة على الحكم من خلاله. انتهى الخلاف بمبايعةِ المُستعلي إماماً. الأمرُ الذي لم يلقَ قبول وتسليمَ عند اسماعيلية شمال فارس في قلعة آلموت حيث عمل زعيمهم الحسن الصُّباح على تأسيس حركة اسماعيلية جديدة تنادي بإمامة نزار بن المستنصر عرفت بالفداوية ,والتي قامت بمدٍّ نفوذها إلى بلاد الشام منذُ سنة 488هـ/1095م. فحاول دُعاتها السّيطرة على حلب، وبعد فشلهم توجّهوا إلى جنوب بلاد الشام ودمشق. وبعد إخفاقهم الأخيرِ تمكّنوا من تأسيس دُويْلة في جبال سواحل بلاد الشام الشّماليّة الغربيّة في سنة 527هـ/1133م شملَت قلاع (القدموس، الكهف، مصياف، الخوابي، العلّيقة، المنيقة والرّصافة). تمكَّنت تلك الحركة من البقاءِ دون الذَّوبان بين الأطرافِ المتصارعةِ من زنكيين وأيوّبيين من جهةٍ والفرنجةَ من جهةٍ أُخرى. ومع قيامِ المماليك بتوحيدِ بلادِ الشّام مع مصرَ والقضاءِ على الفرنجةِ المتواجدين في إمارة طرابلس قوَّضوا الدَّعائمَ الأساسّية لاستمرارِ الوجودِ الفدّاوي في بلادِ الشّامِ القائمِ على سياسّة التوازنِ بين الأطرافِ المُتنازعة. لقد تمكَّنت تِلك الحركة من البقاءِ ما يُقاربُ مائةً وثلاثينَ عاماً (527_658هـ/ 1133_1260م) مُستقلّةً قويّةً. لتعيشَ بعدها فترةَ ضعْف امتدّت زمنَ المماليك 658_671هـ/1260_1273م، والذين شعروا بِضعفها المُتزايدِ فبادروا إلى القضاءِ عليها. ولابدَّ من الإشارةِ خِتاماً إلى أهميّة الجانبِ الحضاريِّ لتلكَ الحركَة؛ لتفرُّدها عن باقي الحركات والدّويلات التي قامت في بلادِ الشّام من النَّاحيةِ المعماريّةِ، والخطّ، والرّموز. وبما أنَّ الدّراسات المعنيّةَ لم تبحث في تلكَ الجوانبِ الحضارية للفدّاويّة، فقد تمَّ دراستُها ميدانياً، وتمَّ اعتمادُ نتائج مواسِم التّنقيبات لمديرية الآثار والمتاحف في محافظةِ طرطوس في هذا البحث تحت مسمّى "الجانب الحضاريّ والمعماريّ لقلاع الفدّاويّة".

أهميّة البحث وأهدافُه:

أهميّة البحث: تنطلق أهميّة هذه الدّراسة من خلال دراسةِ الحركة الفدّاوية بجميعِ جوانبها العقائديّةِ والعسكريّةِ والحضاريّةِ. باعتبار أنَّ أغلب الدّراسات أولَت اهتمامَها لدراسة أحوال الفدّاويّة في قلعة آلموت دون بلاد الشام.

أهدافُ البحث : يهدفُ البحث إلى عرضِ المزيدِ من المعلومات عن قيام الحركة الفدّاويَّة في بلاد الشام ونشاطِها. وتوظيف نتائجِ الرّحلات الميدانيّة، ونتائج البعثات التنقيبيّة لمديّرية الآثار والمتاحف في طرطوس في البحث بهدفِ الوصولِ إلى حقائقَ جديدةٍ عن عمارة قلاعِها مع وصفٍ عمارتها وخطوطِها ورُموزها. في ضوءِ قلّة الدّراسات الدّقيقة والشّاملة عنها.

منهجيّة البحث:

استخدمَت الدّراسة المنهج الوصفيّ_ التّحليليَّ المُعتمِدَ على دراسة الموضوع كما هو في الواقع. ومحاولة عرض تاريخ الحركة الفدّاويّة من خلال تحليل ما وصلتُ إليهِ من معلوماتٍ من أُمّهاتِ الكُتبِ والمراجع، بالإضافة إلى المشاهداتِ الميدانيّةِ لقلاعِ تلكَ الحركةِ؛ وصولاً إلى الغايةِ المنشودةِ من هذه الدّراسة.

النّتائج والمناقشة:

اولاً: أوضاع بلاد الشّام قبيل ظهور الحركة الفدّاويّة فيها:

أوائلَ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، توزَّع العالم الإسلامي ما بين الخلافة العبّاسيّة في بغداد والخلافة الفاطميّة في القاهرة، والخلافة الأمويّة في قُرطبة. وقد كانت بلاد الشّام في تِلك الفترة ساحةً للصِّراعاتِ العبّاسيّة–الفاطميَّة. ومعَ الوقتِ تفاقَم ضعف الخلافتين نتيجةَ ظهور الّدول والحركات المُستقلّة لِيصبحَ العالم الإسلامي مُنقسماً في مُعظمهِ من شرقهِ إلى غربهِ بين الأُمراءِ والحُكامِ المُتسلّطين [1].وبسبب هذا الإنقسامَ تمكّنُ السّلاجقة [2] من دخول بغداد عام 447هـ/1055م، ثم تابعوا زحفُهم إلى بلاد الشّام. الأمر الذي أدى إلى فِقدان الأمن وعدمِ الاستقرار. وخلقِ فوضىً سياسيَّة ،فضلاً عن الفوضى العقائديّة، وتحطّم قوّة القبائل العربيّة، وتعطّل الزراعة وحركة الاقتصاد. وما كاد النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي يبدأ حتّى أخذت قوّة السّلاجقة تضمحلّ وتضّعف، بعد وفاة السّلطان ملكشاه سنة 485هـ/1092م. ممّا أدّى إلى انقسام السّلطنة السّلجوقية إلى ممالك متنازعة فيما بينها. وبما أنَّ دراسة تُوجِز حالَ و أوضاعَ بلاد الشام قبيلَ ظهور الحركة الفدّاويّة، يمكنُ القول بأنَّ من آثار الزّحف السّلجوقي على بلاد الشام تقسيمها وتحويلُها إلى دويلات صغيرة: حلب المرداسيّة، وأنطاكية البيزنطية، وطرابلس العقيليّة ثمّ العمّاريّة، وشيزر وكفر طاب المنقذيّة، وإقطاعاتٍ مستقلّةٍ في السّاحل الشّمالي الغربيّ من بلاد الشام[3]. وبالتّالي أصبحت مدنُ بلاد الشام متصارعةً فيما بينها، مما سهلَّ لدعاة الفدّاوّية التّغلغلَ في بلاد الشّام. ولعلّ أهمّ العواملِ التي ساعدت في ذلك:

• قيام العبّاسيّين ومن بعدهم السّلاجقة بإضعاف القوّة الرئيسيّة الموجودَة في بلاد الشام لصالحهم من الحمدانيين والعقيليين مروراً بالمرداسيين. ومن ثمّ ترك بلاد الشام مقسَّمة إلى إماراتٍ صغيرة متصارعة.

• قيام حروب الفرنجة (الصّليبيّة) التي عملت على تدمير بقايا تلك الإمارات المستقلّة عن الخلافَتَين العبّاسيّة والفاطميّة، وخلق فراغٍ سياسيّ في بلاد الشّام استغلّه دعاة الفداوّية بشكل ممتاز[4].

---

1) زكار، سهيل، *حروب الفرنجة*، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2005م، د.ط، ص48 وما بعد.

2) السلاجقة: ظهرو في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الهيلادي على أنقاض الدولة الغزنوية شرقي الخلافة العباسية، على يد سلالة تركية تنحدر من قبيلة قنق، حكمت من أواسط آسيا حتى بلاد الشام، كان أول زعمائها طغرل بيك سنة 455هـ/1063م ومن ثم ألب أرسلان سنة 464هـ/1072م ثم جاء ملكشاه 485هـ/1092م، وبموته قامت صراعات على العرش أدت إلى تفتت السلطنة إلى دويلات سلجوقية في خراسان وكرمان وبلاد الشام وسلاجقة الروم . للمزيد ينظر : الأصفهاني (محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ت 597هـ/ 1121م) : *دولة آل سلجوق*، اختصار الفتح بن علي البنداري، دار الكتب العربية، القاهرة، 1900م، ط1، ص9 وما بعد

3) زكار، سهيل، *الدولة العربية في المشرق*، منشورات جامعة دمشق، دمشق، د. ت، د.ط، ص 115– 117 .

4) الحايك، منذر، *العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية* ، الأوائل، دمشق، 2006م، ط1، ج1، ص329.

ثانياً. ظهور الحركة الفدّاويّة في بلاد الشَّام :

توفيَّ جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بالصادق في سنة 148هـ/765م. وكانت وفاته حدثاً خطيراً لما تبِعه من انقسام الشّيعة حول شخصيّة الإمام التّالي. فالفرقةُ التي قالت بإمامة موسى بن جعفر عُرفوا بالإماميّة الاثني عشريّة. والفرقة التي بايعت اسماعيل بن جعفر إماماً، ومن بعده محمد بن اسماعيل، عُرفت باسم الاسماعيليّة [1]. والمهمّ هنا أنّ الشّيعة الاسماعيليّة [2] مرّ تاريخها بمرحلتين: الأولى دور السّتر، نتيجة الملاحقات العباسيّة لأئمّتها. والثّانية دور الظّهور، حين تم إعلان قيام الخلافة الفاطميّة في افريقيا ثم مصر عام 297هـ/699م. وهنا أصبح بإمكان الأئمة الاسماعيليّة أنْ يظهروا بين النّاس، ويتلقّبوا بالإمامةِ والخلافة دونَ خوف. ولكن بعد موت الخليفة الفاطميّ المستنصر سنة 487هـ/1094م، انقسَمت الاسماعيلية إلى مستعلية ونزاريّة. وكانت مُساندةُ الوزير "الأفضل بن بدر الجمالي" [3] لإمامةِ المستعلي بن المستنصر مُرجّحةً لكفّتِه على معارضيه، فنوديَ به الخليفةَ الفاطميَّ الجديد. لكنَّ الاسماعيلية القاطنينَ شرقَ البلاد الإسلاميّة رفضوا بيعة المُستعلي. وأصبحَ الدّاعية الحسن بن الصّباح [4]، في قلعة آلموت في جبل (ألبرز) شمال بلاد فارس سنة 488هـ/1095م، حاملَ لواءِ الاسماعيليّة النّزاريّة. عُرف أتباع الصّبّاح في كُتب المصادر باسمِ الفدّاويّة. وقد استغلّ الحسن بن الّصبّاح انحلالَ الحكم السلجوقيّ العبّاسيّ في بلاد الشَّام، فأعلنَها قاعدةً لنشاطاتهِ، ومركزاً جديداً لحركته[5].

ثالثاً. دعاة الحركة الفدّاويّة في بلاد الشام 488–672هـ/1095–1273م:

وبما أنَّ افريقيا ومصر كانا بيدِّ الاسماعيليّة المستعلية، فكان من الطّبيعي أنْ يتوجّه دعاةُ النزارية الفداوية شرقاً. وتحديداً بلادَ الشَّام التي كانت تُعاني من آثار الزّحف السّلجوقيّ عليها، وكانت مقسّمة إلى إمارات مُتنازعة فيما بينها[6]. حيث استّغل حسن بن الصّبّاح وضعَ بلاد الشَّام المضطرب، وقام بإرسال الدُّعاة إلى مدينة حلب سنة

---

1) عبد الكريم، أحمد، *الطائفة الإسماعيلية*، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1959م، ط1، ص20 .

2) سُميت الإسماعيلية بذلك لاعتقادها بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق الابن الأكبر له ، ودعيت بالباطنية لتأويلهم الباطني للنص القرآني، وسموا بالملاحدة لاتهامهم بإقامة شرائع غير إسلامية، أما الأوروبيون فدعوهم (Assassins) أي منفذي الاغتيالات السياسية، وربما ترجع الكلمة إلى لفظة أساسين التي أطلقها الحسن الصباح على أتباع الحركة الفداوية أي أساسيون في الدين، تذكرهم كُتب المصادر باسم الفدّاوية والمراجع بالفدائية، والمراجع المتشددة بالحشيشية. للمزيد ينظر: المقريزي (أحمد بن علي العبيدي ت 845 هـ /1441م) ، *المواعظ والاعتبار*، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م، ط2، ج2، ص18.

3) الأفضل بن بدر الجمالي: هو أحمد بن أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني ولد سنة 458هـ/1066م، شارك أباه في بعض أعماله، ثم عُيّن وزيراً للمستنصر بالله الفاطمي بعد وفاة أبيه سنة 487هـ/1094م، فسار على خطى والده بالسيطرة على الحكم خاصة في فترة حكم المستعلي بالله الفاطمي487.495هـ/1094.1101م، والآمر بأحكام الله الفاطمي487_524هـ/1101_1130م، والذي تخلص منة عندما تقدم بالسن سنة 515هـ/1121م. للمزيد ينظر: القلانسي (حمزة بن أسد بن محمد ت 555 هـ /1160 م)، *ذيل تاريخ دمشق*، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م، ص127 وما بعد.

4) الحسن بن الصباح: يعود بأصله إلى قبيلة حمير اليمنية، ولدَّ في مدينة قم، واعتنق الإسماعيلية في مدينة الري، يعتبر مؤسس المذهب الإسماعيلي النزاري كان مركزه قلعة ألموت، والتي تعني عش النسر للمزيد عنه ينظر: الهمذاني (رشيد الدين ت 718 هـ/ 1318م) ، *جامع التواريخ*، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1985م، ص285.

5) عبد الحميد، عثمان، *الإسماعيليون في التاريخ*، المكتبة التاريخية، القاهرة ، د.ط، 1983م، ص130 _131 .

6) حسين، محمد كامل، *طائفة الإسماعيلية*، النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1959م، ص93.

488هـ/1095م. والتي كانت من نصيب رضوان بن تتش السّلجوقي [1]. وقد استطاع الدَّاعي المنجّم أسعد بشيءٍ من الدهاءِ أن يستحوذَ على رضوان الذي أصبح أُلعوبةً بين يديه، وبالتالي فقد قوي نفوذ الفدّاوّية في حلب، ولكنّ هزيمةَ رضوان أمام أخيه دقاق أمير دمشق (5)، وصهره جناح الدولة أمير حمص سنة 490هـ/1097م بسبب عدم قيام الفدّاوّية بمساعدته حوَّلت نعمته إلى نقمة عليهم، فهرب المنجّم أسعد إلى فارس. وبعد إدراك زعيم الفدّاوّية حسن بن الصّبّاح فشلهُ في حلب عاد وأرسل الدّاعية أبا الطّاهر الفارسي سنة 496هـ/ 1102م إلى حصن أفاميا، والذي يعد مع معرة النعمان، وتلّ باشر، وكفرطاب، حصوناً بين حمص وحلب [2]. لكن الدّاعي الفارسيَّ لم يتمكَّن من الاستحواذ على الحصن لفترة طويلة، فكان لابدَّ لدّعاة الفدّاوّية من أن يحولوا نشاطهم إلى أماكن أخرى. فتمّ إرسالُ الدّاعية الأسد اباذي الفارسي إلى جنوب بلاد الشام سنة 520هـ/1126م. حيث تمكّن من السّيطرة على قلعة بانياس الحولة وفي سنة 523هـ/1129م[3]، حاول الدّاعي بهرام الفارسي السّيطرة على دمشق زمنَ أمير الدولة البوريّة بوري بن طفتكين 522_526هـ/1128_1132م المؤسس الحقيقي للدولة البورية والتي حكمت دمشق بعد مقتل دقاق بن تتش . ولكنّ مخططه انكشف وباء بالفشل، فقُتل مع 600 شخص من أتباعه وأُحبط مشروع الفدّاوّية في دمشق. وفي سنة526هـ/1132م تمكّن الفرنجة من السّيطرة على قلعة بانياس الحولة. فانتقل دُعاة الفدّاويّة إلى السّاحل الشّمالي الغربيّ لبلاد الشَّام. واشترى الدّاعية اسماعيل الفارسي سنة 527هـ/1133م قلعة القدموس من أولاد ابن عمرون الدّمشقيّ. وبحلول سنة 535هـ/1141م بسط الفدّاويّة نفوذَهم على سلسلة قلاعٍ عُرِفت تاريخيّاً باسمِ قلاع الفداوية وهي: القدموس– مصياف– الكهف– الخوابي– المنيقة– العليقة– الرصافة. مارست الحركة الفدّاويّة من خلال هذه القلاع دوراً هاماً في مجريات أحداث بلاد الشّام خلال فترة الحروبُ الفرنجية. وتمكّنت من الصمودِ في وجه جميع حملات اعدائها وخاصة حملاتِ نور الدّين الزّنكي [4].

رابعاً. قلاع الدعوة الفدّاويّة في بلاد الشَّام :

بذل دُعاة الفدّاوّية جهود كبيرة في بلاد الشَّام إلى أن تمكّنوا من إقامة دويلة مُستقلّة لهم تشّمل القسمَ الجنوبيّ من جبال البَهرة (جبال اللاذقية حالياً)؛ وهي جبالٌ شاهقة الارتفاع لها قِممٌ شديدةُ الانحدارِ، وأُوديةٌ وعِرةُ المسالكِ، ودروبٌ مُتشعبةٌ ضيقةٌ، تنتصب فيها القلاع والحصون، وتتناثر فيها القرى. اتّسعت هذه الدّويلة شيئاً فشيئاً من قلعة القدموس، والتي تبعد عن مدينة طرطوس حالياً 35كم، وتعدّ هذه القلعة النّواة الأولى لتشكيل ما عرف بقلاع الدّعوة في ساحل

---

1) رضوان بن تتش: هو فخر الملك رضوان بن تتش بن ألب أرسلان السلجوقي حكم مدينة حلب في الفترة ما بين 488_506هـ/1095_1113م. للمزيد ينظر : ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي باكر ت 681هـ /1282م) ، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تح: احسان عباس، دار صادر، بيروت ، ط1، د.ت، ج2 ص295.

2) دقاق: هو شمس الملوك أبو نصر بن تتش بن السلطان ألب أرسلان حكم دمشق بعدما توفي والده ما بين 488_497هـ/1095_1104م للمزيد: ابن العديم (عمر بن أحمد بن أبي جرادة ت660هـ / 1261م) ، *زبدة الحلب في تاريخ حلب*، تح: سهيل زكار، دار الكتاب العربي ، دمشق، ط1، 1997م، ج1، ص239.

3) ابن الأثير (علي بن أبي الكرم الشيباني ت 630هـ / 1232م) ، *الكامل في التاريخ*، تح: عبد الله القاضي، دار صادر، بيروت، ط1، 1989م، ج10، ص 632 وما بعدها .

4) نور الدين زنكي: أبو القاسم محمود بن عماد الدين الزنكي بن آق سنقر 511_569هـ/1118_1174م يلقب بالملك العادل والشهيد حكم حلب بعد وفاة والده حاول توحيد بلاد الشام ومصر تميز بحروبه المستمرة ضد الفرنجة والفداوية بعد وفاته تسلم الحكم ولده الصالح إسماعيل للمزيد ينظر: ابن العبري (غريغوريوس أبي الفرج بن أهرون الطبيب الملطي ت 685هـ / 1286م) ، *مختصر أخبار الدول*، دار صادر، بيروت ، د.ط، 1983م، ص 410وما بعد.

بلاد الشام[1]. تمكّنت الدعوة الفدّاوّية بعد ذلك من ضمّ قلعة الكهف سنة 535هـ/1141م ؛ والتي تقع في الجهة الجنوبية الغربية من القدموس 15كم، وتبعد عن مدينة طرطوس حالياً 50 كم، وتقع فوق هضبة كلسية تشرف على وادٍ من ثلاث جهات. ولعلّ أهمّ ما يميّز هذه القلعةَ والتي كانت العاصمةَ الأولى للفدّاويّة في بلاد الشام كونها ذاتِ تضاريس وعرة صعبة العبور [2]. وفي نفس السّنة تمكّنت الفدّاويّة من السّيطرة على قلعة مصياف، التي تقع في محافظة حماة حالياً باتجاه جنوب غرب فوق تل متدرج الانحدار. تكمن أهميّة قلعة مصياف في كونها العاصمة الثّانية لقلاع الفدّاويّة. فقد اتّخذها الدّاعي راشد الدّين سنان [3] عاصمة له سنة 558هـ/1163م لموقعها الاستراتيجيِّ بين قلاع الفدّاويّة. فضلا عن قلاعٌ ثانويّة اشتهرت الى جانب تلك القلاع الرئيسة، وهي قلعة الخوابي التي تبعد عن مدينة طرطوس حالياً باتجاه الشرق 30 كم، وقلعة المنيقة والعلّيقة والرّصافة التي كانت وظيفتها عسكريّةً دفاعيّة أي حلقةِ دفاعٍ أولى لحماية االكهف– القدموس والعاصمة مصياف[4].

1) حنّا، زكيّة، *القلاع والمواقع الأثريّة في محافظة طرطوس* ، مطابع ألف باء، دمشق، د.ت ، ص 82 وما بعدها.

2) عميري، ابراهيم، *سلسلة الجبال الساحلية* ، دانيه، دمشق، ط1، د. ت، ص 269– 270 .

3) هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد المعروف براشد الدين سنان، وملقب بشيخ الجبل، ولد في قرية صغيرة من قرى البصرة، تقرب من ولي عهد ألموت كيابزرك المعروف بالحسن بن محمد وبعد تولي كيابزرك الإمامة الإسماعيلية النزارية أرسل سنان ليكون رئيس دعاة الفداوية في جبال الساحل السوري، تمركز في قلعة الكهف، ثم جعل من مصياف عاصمة له 557– 588هـ / 1162 – 1192م للمزيد ينظر: القلقشدي (أحمد بن علي ت 821هـ / 1418م) ، *صبح الأعشى في صناعة الأنشا* ، تح: محمد عبد الرحمن ابراهيم، الأميرية، القاهرة، ط1، 1914م، ج1، ص122 والذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان ت 748هـ / 1347م) ، *سير أعلام النبلاء*، تح: عمر عبد السلام، دار وادي النيل، القاهرة، 1870م، ص153 وما بعد.

4) فولفغانغ، مولر– فينر، *القلاع أيام الحروب الصليبية* ، تر: محمد وليد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ط 1، 1982م، ص 88– 89.

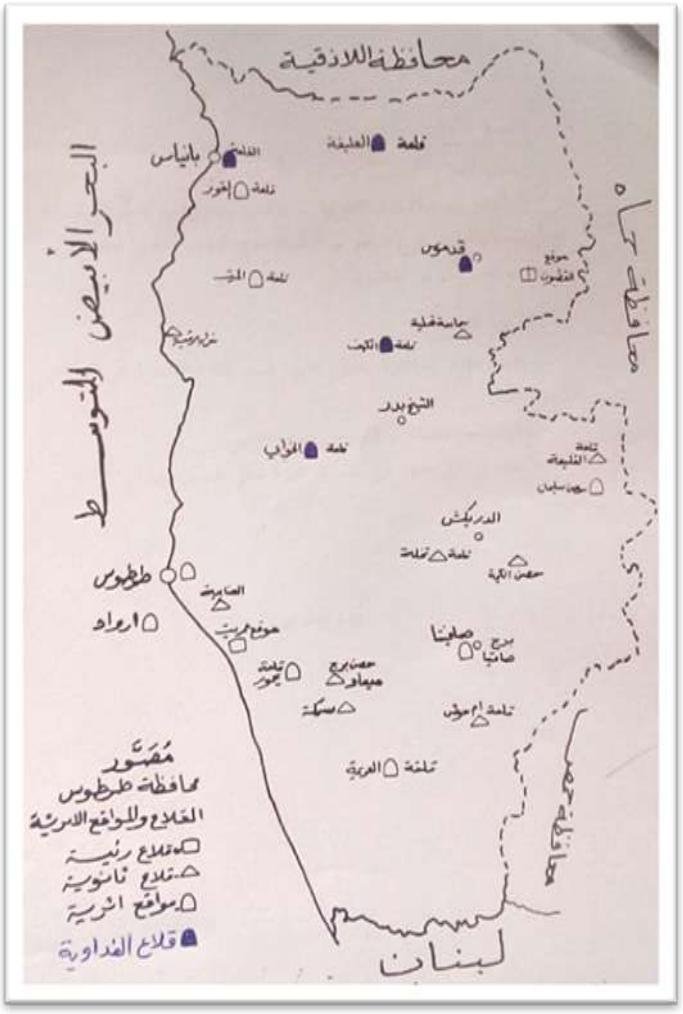

المصوّر رقم (1) : موقع قلاع الفدّاويّة على ساحل بلاد الشام (السّاحل السوري حالياً) .

المصدر: حنّا، زكيّة، مرجع سابق، ص 5

خامساً. العلاقاتُ الدّبلوماسيّة والسّياسيّة:

لقد كانت القلاع الفدّاويّة في بلاد الشام تقوم كحدٍّ فاصلٍ بين مناطقِ نفوذ الفرنجة في السّاحل السوريّ حالياً، والزّنكيين ومن بعدِهم الايّوبيّين في المدن الداخليّة لبلاد الشّام. وقد اقتصرت العلاقات الدّبلوماسيّة بشكل عام على استقبال الفدّاويّة للوفود الفرنجيّة. ويبدو هدفُ تلك الاستقبالاتِ إظهارَ قوة رجال الفدّاويّة، و وعورة تضاريس قلاعهم ومنعتَها. لثني الفرجة عن التفكير بالقتال. فبحكم موقعهم تحتّم على الفّداويّة إظهار قوّتهم للفرنجة أيّامَ تحالفهم مع باقي إمارات المسلمين. وعند تصعيد مسلمي الدّاخل ،كما فعل نور الدّين الزّنكي، بسيطرته على قلعة شيزر سنة 552هـ/1157م، سارعت الفدّاويّة لتوثيق علاقاتها مع الفرنجة[1].

1) عميري، ابراهيم، مرجع سابق، ص 305

سادساً. العلاقاتُ العسكريّة:

تميّزت الحركة الفدّاويّة تاريخيّاً بتأسيس نشاطها العسكريّ على الاغتيالات. فدُعاة الفدّاويّة أدركوا أنَّ الأهميّة للنّوعية لا الكمّيّة، ذلك بأنَّ الاغتيال هو الطّريق الأمثل لجعل جميع الاطراف المتصارعة تهاب حركتهم. فقد قامت الفدّاويّة على سبيل المثال باغتيال الأمير الفرنجي ريموند بن بوهيموند الرابع حاكم إنطاكية في كاتدرائيّة إنطرطوس (طرطوس حالياً)[1] سنة 610هـ/1213م، واغتيال كونراد ملك بيت المقدس سنة 588هـ/1192م، بطلب من الملك ريتشارد الأول(3). وبذلك تمكنت الفدّاويّة من تصفية خصومها الفرنجة بأموال الفرنجة. ولكن بالمقابل لا تقدّم كُتب المصادر مثالاً عن قيام الفدّاويّة بقتل قائد مسلم بأموالِ وتحريض خصومه الفرنجة. أمّاَ مَن تمّ اغتياله في حلبَ ودمشق، فيرجع إلى رغبة الفدّاويّة بتأسيس دويلة لها في تلك المدينتين، وعند إخفاقها قامت باغتيال من وقف في طريق مشروعها، كاغتيال جناح الدّولة حسين أمير حمص، الذي وقف في وجه دعاة الفدّاويّة في حلب سنة 496هـ/1103م، وأمير حصن أفاميا خلف بن ملاعب سنة 499هـ/1105م[4].

سابعاً. سقوط قلاع الفداوية :

بدأت العلاقات الفدّاويّة المملوكيّة إثرَ استرجاع الظاهر بيبرس قلعةَ الأكراد من الفرنجة سنة 669هـ/1271م، فسارع أُمراء المدن المجاورة تطلب ودّهُ ، وتباطأ عن ذلك زعيم الفدّاويّة الدّاعي نجم الدين الشعراني. وبعد أن استشعرت الفدّاويّة ضعفها راسلت بيبرس، الذي قام بتعيين الدّاعي الراضي بدلاً من نجم الدين، وهنا يجب التّوقف عند هذا الحدث الخطير، فتعيين داعي الدّعاة للحركة الفدّاويّة من قبل شخصيّة غير اسماعيليّة يُعتبر سابقة في تاريخ الحركة في بلاد الشام، وقد مثّل ذلك بداية نهاية الحركة الفدّاويّة. ولم يقف بيبرس عند تعيين الرّاضي ، بل جعل من قلعة العلّيقة عاصمة لهم، وضمَّ مصياف لسلطنته سنة669هـ/1271م[2]. وبعد فترة قام بيبرس بدخول قلعة العلّيقة، وأسرَ الرّاضي، وبذلك لم يبقَ تحت سيطرة الفدّاويّة إلّا قلعة القدموس والكهف، والتي استعصم بهما الدّاعي شمس الدّين بن الشعراني، لكنَّ بيبرس كان الغالبَ و دخل قلعة الكهف سنة 672هـ/1273م. واعتباراً من هذا التّاريخ تحوّلت الحركة الفدّاويّة إلى مذهب دينيّ، ليس له أي دور سياسيّ في بلاد الشام بعد أن ذابت قلاعهم في دولة المماليك[3].

ثامناً. الجانب الحضاري والمعماري لقلاع الفداوية:

إنَّ الدّارس لتاريخ الحركة الفدّاويّة في بلاد الشام يدرك بأنَّ دور هذه الحركة لم يقتصر فقط على الاغتيالات السياسية بل تعدى نشاطها إلى جوانبَ حضاريّةٍ ومعماريّة مهمة، تمثلت في:

1_العمارة الوحشيّة: لا يُقصد بالعمارة الوحشية تلك المدرسة التي ظهرت في النّصف الثّاني من خمسينيّات القرن العشرين في أوروبا بعد الحرب العالميّة الثّانية 1939–1945م؛ بل نعني بها النّظام المعماري لِقلاع الفداوية،

---

1) كانت كنيسة بيزنطية قديمة تعرف بكنيسة الحجاج، أُقيم على مذبحها أول أضحية مسيحية في العالم على يد القديس بطرس، وأهدى القديس يوحنا الإنجيلي أيقونة مريم لتلك الكنيسة، وفي زمن الحروب الفرنجية تحولت على أيدي فرسان الداوية إلى كاتدرائية، والكاتدرائية مهمتها الإشراف على مجموعة كنائس، تحولت في وقتنا الحاضر إلى متحف وطني للمزيد: عمران، صبا، *منشورات متحف طرطوس*، طرطوس، د. ت، ص2.

3) الملك ريتشارد الأول: هو ابن ملك إنكلترا هنري الثاني يلقب بقلب الأسد بفضل سمعته كمحارب عظيم حكم إنكلترا ما بين 585_595هـ/1189_1199م وشارك بالحملة الصليبية الثالثة للمزيد ينظر: *الحايك، منذر، مرجع سابق، ص356.*

4) *توراو، بيتر، الظاهر بيبرس*، تر: محمد جديد، دار قدمس، دمشق، ط2، 2002م، ص187وماويعدها.

2) عميري، ابراهيم، مرجع سابق، ص 307.

3) عبد الكريم، أحمد، مرجع سابق، ص 264.

فعلى سبيل المثال: غرفةُ الدّاعي شيخِ الجبل راشدِ الدّين سنان في قلعة الخوابي، والغرف في قلعة الكهف من غرف الدّعاة إلى غرف الجنود من الفدّاويّة، نجدها غرفاً خاليةً من أيّ زخارفَ، بُنيت من حجارة ضخمة تشبه الكهوف، أرضها من ترابٍ وحصى. وهذا إنْ دلَّ على شيء فهو يدلُّ على أنَّ أفراد الفدّاويّة كانوا يختبرون أصعبَ ظروف العيش في تلك البيوت، والتي كانت ميزتها الأهمّ التقشف، والخشونة لِتناسب البنية الجسديّة والنفسيّة للفدّاويّة الذين كرسوا حياتهم للموت لا للمتعة[1].

2_المساجد: بدايةً لا تطلق الفدّاويّة على مساجدها اسمَ جوامع، ولم يتطرّق أحد إلى سبب عدم إطلاقهم هذا الاسم عليها. و ربّما كان السّببُ أنَّ المسجد يتميّز بصغر حجْمه عن الجامع، ولا تُقام به صلاةٌ جامعة. وهذا ما يتطابق مع حجم المساجد الصغيرة في قلاع الفداوية. كذلك تتميز مساجدهم بعدم وجود المئذنة[2].

3_الخطّ: تتميز قلاع الفدّاويّة بكثرة الكتاباتِ المنقوشة على جدرانها. وإنَّ الدّارس لتلك الكتابات يلاحظ الطّابع الدّينيّ الطّاغي عليها، من آياتٍ وأدعية .مع وجود التوثيق التأريخيّ للأحداث، فعلى سبيل المثال: يلاحظ وجود آية الكرسي على إحدى بوّابات قلعة الكهف منتهية بتأريخ [3]. وتلك الصّفة الدّينيّة التّأريخيّة كانت عامّة للكتابات الإسلاميّة. ولكنَّ ما يميّز كتابات القلاع الفدّاويّة هو استخدام خصائصَ خطّيّة متنوّعة، كعناصر من الخط الكوفي [4] وخط الثلث[5]. وهذا يدلُّ على أنَّ خطّاطي الفدّاويّة لم يلتزموا خطّاً بعينه، بقدر ما استفادوا من الميّزات الكتابيّة للخطوط بما يتماشى مع طبيعة العمارة الوحشيّة.

4_ الرّموز الفداوية: إنَّ اعتمادَ الفدّاويّة على استخدام الرّموز كان أمراً طبيعيّاً لحركة عُرفت بالسّريّة والغموض، وكان من أهم هذه الرموز:

• رمز الدائرة: كثيراً ما كانت تُحاط كتاباتهم بالأشكال الدائريّة، والتي ترمز إلى الكونيّة، والسّيطرة، والاستمراريّة، والأبديّة[6].

• رقم سبعة: نلاحظ وجوده على خناجر الفدّاويّة، والذي يرمز إلى ترتيب الإمام محمد بن اسماعيل، وهو سابع الأئمة عندهم[7].

• كلمات غامضة: ولعلّ أشهرها كلمة (لما عد خو) ،والتي وجدت على أحد أبواب قلعة الكهف، وما تزال كلمة غامضة حتى وقتنا[8].

---

1) المصدر: الباحث لتعذر ورودها في الكتب التي تتطرق لموضوع البحث، للمزيد ينظر في الشكل رقم 2، ص12.

2) للمزيد ينظر في الشكل رقم3، ص13.

3) ينظر الشكل رقم1، ص12.

4) الخط الكوفي: هو من أقدم الخطوط العربية ينسب إلى الكوفة عاصمة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب يتميز بكونه خالي من التعقيد وربط الحروف. للمزيد ينظر: حموده، محمود، *تطور الكتابة الخطية العربية* ، دار النهضة، القاهرة، ط1، 2000م، ص136.

5) خط الثلث: بدأ مع الخطاط ابن مقلة سنة 328هـ/940م ثم تطور مع ابن البواب وسميَّ بالثلث لأنه يُكتب بقلم يبرى رأسه بعرض يساوي ثلث عرض القلم الذي يكتب به الخط الجليلي. للمزيد ينظر: حموده، محمود، مرجع سالف الذكر، ص 148.

6) تم الاعتماد في كتابة فقرة الخط والرموز على المشاهدات الميدانية والاستنتاجات، فضلاً عن الاعتماد على تقارير تنقيبات دائرة الآثار والمتاحف في طرطوس لعام 2002م. للمزيد: عيسى ، رشيد ، *منشورات دائرة الآثار في طرطوس* ، مادة قلعة الكهف ، 2002م ، ص7.

7) السيد، عبد الوهاب، *خلف أسوار العلم*، دار اليقين، الكويت، ط2، 2007م، ص180.

8) حنا، زكية، مرجع سابق، ص 89.

الشكل رقم (1): نقش كتابيّ فدّاويّ ذو موضوع دينيّ تأريخيّ موجود في قلعة الكهف.
المصدر: الباحث.

الشكل رقم (2): إحدى الغرف الدّاخليّة في قلعة الكهف والتي تعدّ نموذجاً للعمارة الوحشيّة.
المصدر: الباحث

الشكل رقم (3): مسجد قلعة الكهف بدون مئذنة .

المصدر: الباحث.

خاتمة:

بناءً على ما سبق لقد ساهم انشقاق الاسماعيليّة ، سنة 488هـ/1095م إلى مستعلية ونزارية، في ظهور حركة ذات طابع خاصٍّ في التّاريخ الإسلامي عُرفت بالحركة الفدّاويّة. والتي جعلت من قلعة (آلموت) شمال فارس مركزاً لها، ومن بلاد الشام غايةً لدعاتها ومركزاً لنشاطها. وبرغم من فشلها في مدينة حلب، و دمشقَ وجنوب بلاد الشام، فإنّها أسّست دويلة امتدّت على الجبال السّاحليّة لبلاد الشام عُرفت بقلاع الفدّاويّة. وعلى الرغم من بُعد مركز الحركة الفدّاويّة عن تلك القلاع، وتخبّطها بين الولاة الأقوياء والضعفاء، إلّا أنّها تمكّنت من البقاء مائة وثلاثين عاماً. من خلال تحقيق الاستقرار السياسيّ، بالموازنة بين قوى الزّنكيّين والأيوبيّين في مدن بلاد الشام الداخلية مع الفرنجة على الساحل. وعند قيام المماليك بتوحيد بلاد الشام مع مصر قرّر الظاهر بيبرس القضاء عليها سنة 672هـ/1273م، عندما استشعر ضعفها. على أنّه ينبغي، تحقيقاً للأمانة التّاريخيّة، عدم تأطيرِ هذه الحركة بمرجعيّتها العقائديّة، أو حصْرُ دراستها بأهدافها السّياسيّة و أساليبها العسكريّة. بل يجب النّظر أبعدَ من ذلك لتقييم نتاجها الحضاري، والذي ترك بصمةً فريدة على نواحي العمارة والبناء.

المصادر والمراجع:

•المصادر:

1-ابن الأثير (علي بن أبي الكرم الشيباني ت 630هـ/1232م)، *الكامل في التاريخ*، 11ج، تح: عبد الله القاضي، دار الكتب، بيروت، ط1، 1987م، ج9، 504ص.

2- الأصفهاني (محمد بن محمد الأصفهاني ت 597هـ/1121م)، *دولة آل سلجوق*، اختصار البنداري، دار الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1900م، 292ص.

3- ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر ت 681هـ / 1282م)، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، 8ج، دار صادر، بيروت، ط1، 1987م، ج1، 494ص.

4- الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان ت 748هـ / 1347م)، *سير أعلام النبلاء*، 23ج، تح: عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990م، ج21، 536ص.

5- ابن العبري (غريغوريوس بن أهرون الطبيب الملطي ت 685هـ / 1286م)، *مختصر أخبار الدول*، دار صادر، بيروت، 1983م، 633ص.

6- ابن العديم (عمر بن أحمد بن أبي جرادة ت 660هـ / 1261م)، *زبدة الحلب في تاريخ حلب* ، 3ج، تح: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط1، 1997م، ج1، 528ص.

7- القلانسي (حمزة بن أسد بن علي بن محمد ت 555هـ / 1160م)، *ذيل تاريخ دمشق* ، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م، 683ص.

8- القلقشندي (أحمد بن علي ت 821هـ / 1418م)، *صبح الأعشى في صناعة الأنشا* ، 14ج، تح: محمد رسول ابراهيم، الأميرية، القاهرة، ط1، 1914م، ج4، 507ص.

9- المقريزي (أحمد بن علي العبيدي ت 845هـ / 1441م)، *المواعظ والاعتبار* ، 4ج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1985م، ج2، 456ص.

10- الهمذاني (رشيد الدين ت 718هـ / 1318م)، *جامع التواريخ*، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط 1، 1985م، 446ص.

•المراجع :

1-توراو، بيتر، *الظاهر بيبرس*، تر: محمد جديد، دار قدمس، دمشق، ط2، 2002م، 282ص.

2- الحايك، منذر، *العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية* ، الأوائل، دمشق، ط 2، 2006م، ج 1، 380ص.

3- حسين، محمد كامل، *طائفة الإسماعيلية*، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1959م، 324ص.

4- حموده، محمود، *تطور الكتابة الخطية العربية*، دار النهضة، القاهرة، ط1، 2000م، 376ص.

5- حنا، زكية، *القلاع والمواقع الأثرية في محافظة طرطوس*، مطابع ألف باء، دمشق، د. ت، 98ص.

6- زكار، سهيل، *حروب الفرنجة*، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2005م، 451ص.

ـ ــــــــــــ، *الدولة العربية في المشرق*، منشورات جامعة دمشق، دمشق، د. ت، 328ص.

7- السيد، عبد الوهاب، *خلف أسوار العلم*، دار اليقين، الكويت، ط2، 2007م، 261ص.

8- عبد الحميد عشري، عثمان، *الإسماعيليون في بلاد الشلام في عصر الحروب الصليبية 491_691هـ/ 1097_1290م*، المكتبة التاريخية، القاهرة، 1982م_1983م، 280ص.

9- عبد الكريم، أحمد، *طائفة الإسماعيلية*، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1959م، 198ص.

10- عميري، ابراهيم، *سلسلة الجبال الساحلية*، دانية، دمشق، ط1، د. ت، 375ص.

11- فولفغانغ، مولر – فينر، *القلاع أيام الحروب الصليبية* ، تر: محمد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ط1، 1982م، 340ص.

•المنشورات :

1-عمران، صبا، منشورات متحف طرطوس للعام 2010، فقرة الكاتدرائية، 10ص.

2- عيسى، رشيد، منشورات دائرة الآثار بطرطوس للعام 2002م، مادة قلعة الكهف، 12ص.